لماذا هذه السلسلة

من منطلق الالتزام بالمسئولية الاجتماعية الملقاة على عاتق المشتغلين بالعلم عامة، وبالعلوم الاجتماعية بوجه خاص؛ رأينا أن نقدم هذه السلسلة من المؤلفات فى موضوعات علم النفس المختلفة. ومن المنطلق ذاته اخترنا لها الاسم الدال على توجُّهها الرئيسى، «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية»؛ ذلك أنها تهدف أساسًا إلى إثراء حياتنا الاجتماعية بالمعنى الخاص (حيث التطبيقات المحددة فى مجالات اجتماعية بعينها)، وبالمعنى العام (حيث إتاحة المزيد من المعارف العلمية الحديثة حول سلوكيات البشر لينهل منها الفكر الشائع فى مجتمعنا).

وإحقاقًا للحق فقد تولدت فكرة إصدار هذه السلسلة فى ثنايا حوار كان يجمع بين الوضوح والهدوء والحسم، جرى أولا بينى وبين الصديق العزيز الأستاذ الدكتور جابر عصفور. وكنت أحاول الاستئناس برأيه فى نشر مجموعة من دراساتى العلمية لها من الصفات ما يجعلها وسَطًا بين العام والخاص، قراءةً واستيعابًا، فما لبث الدكتور عصفور أن أشار بأن أعهد بأمانة النشر إلى الناشر المرموق الأستاذ محمد رشاد، صاحب «الدار المصرية اللبنانية»، ثم بادر بالسعى الحثيث فى عقد آصرة علاقة متميزة بينى وبين الأستاذ رشاد قوامها التسليم مسبَّقا بالتقدير والإعزاز المتبادلين. والتقيت بالأستاذ رشاد فأسعدنى اللقاء، سواء على المستوى الإنسانى أو على المستوى العملى فى تحركه نحو الإنجاز المتميز. لم يكن فى مخططى عند فاتحة الحديث سوى نشر كتاب واحد، فإذا بالرجل يأخذ زمام المبادرة فيطرح للنقاش اقتراحا بأن يكون هذا الكتاب فاتحة تعاون بيننا لنشر سلسلة من الكتب فى مجال العلوم النفسية الحديثة. ولقى الاقتراح عندى ترحيبا ورجاء بالتوفيق. واقتضى ذلك إعادة النظر فى البناء الداخلى للكتاب الذى أثار هذا التسلسل الخصب من اللقاءات والمناقشات والمقترحات. وكان جوهر السؤال المطروح أمامى فى هذا الصدد هو: هل يُنشر الكتاب بتصميمه الأساسى الذى

وضعتُه له منذ شغلنى أمره؟ ولم أجد الإجابة ميسورة عندما بدأت الدخول فى هذا المنعطف من التفكير، وكان السبب الرئيسى لهذا العُسْر يتمثل فى الطبيعة الخاصة للكتاب، وما فرضته هذه الطبيعة الخاصة علىَّ من ضرورة العناية بالنظر فى عدد من المفاضلات بين محاسن الإبقاء على التصميم الأصلى ومخاطره.

كان التصميم الأصلى يقضى بأن يضم الكتاب بين دفتيه حوالى ثلاثين فصلا، تتوزع موضوعاتها بين ستة أبواب كبرى فى علم النفس وحوله. وقد سبق لى أن نشرت هذه الفصول جميعا كدراسات متفرقة (فى دوريات متعددة)، وكان بعض هذه الدراسات نظريا وبعضُها الآخر عمليا، وقد امتدت تواريخ نشرها على مدى أكثر من خمسين عاما (من ١٩٤٦ إلى ١٩٩٨) هى عمر اشتغالى بعلم النفس دراسةً وتدريسا وتطبيقا.. كان هذا هو التصميم الأساسى للكتاب فى صورته المبكرة؛ وكان ببنيته هذه يحمل إلى القراء عددا من الرسائل؛ بدءاً من دعوتهم إلى إطلالة على مساحات من الآفاق الرحبة لمباحث علم النفس وتطبيقاته، وانتهاءً إلى حثّهم (كرأى عام ورأى خاص) على الاستزادة ما أمكن من ترسيخ دعائم هذا العلم وحسن توظيفه فى مجتمعنا المصرى خاصة والعربى عامة.

وبين نقطتى البدء والانتهاء كان تصميم الكتاب يحمل رسائل أخرى، فى مقدمتها رسالة ضمنية موجهة إلى من يهمه أمر التاريخ للاشتغال بالفكر العلمى، والفكر العلمى الاجتماعى بوجه خاص؛ كيف وقع هذا الاشتغال لرجل كرَّس حياته فى هذا السبيل؟ وكيف كان المسار؟ وما الذى حكم توجهاته؟ وماذا تحكم فى منعطفاته؟.. هكذا كان التصميم الأصلى للكتاب، وتلك كانت مضامين الرسائل التى رجوت أن يحملها إلى القراء.

وعندما أعدتُ النظر فى الأمر بعد ما كان من لقاءات ومناقشات، وجدتُنى أمام منظور جديد يحفظ على التصميم الجوهر ويضحّى بالشكل؛ فمضمون الكتاب باق كما هو ولكن فى صورة جديدة، فبدلا من كتاب واحد ضخم يقع فى ستة أبواب، يتوزع هذا الكيان بين أربعة كتب ذات أحجام وسط. وانتهى بى الأمر

إلى ارتضاء هذه الصورة الأخيرة لأسباب عملية، ليس أقلَّها التيسير على القارئ بشتى معانى التيسير. ثم إن هذه الكتب الأربعة سوف تكون أمام القارئ بمثابة عينة واضحة الدلالة على نوع الكتب التالية التى يمكنه أن يتوقع صدورها فى إطار سلسلة «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية» كما نخطط لها.

هكذا فى كلمات موجزة وأمينة يسعدنى أن أقدم للقارئ قصة هذه السلسلة من الكتب، كيف بدأت وكيف تبلورت فى الطريق إلى التنفيذ. وقد أثبتُّ لأصحاب الفضل فضلهم فى هذا الشأن، راجيا التوفيق لنا جميعا فيما التقينا حوله.

مصطفى سويف

يونية ١٩٩٩

تصديـر عام للمجلد

يؤلف هذا المجلد بين مجموعتين من الوثائق (الشخصية/ الاجتماعية)، إحداهما مجموعة من الحوارات، والأخرى مجموعة من الرسائل؛ أما الحوارات فهى تسلّط الضوء على ما تبنيتُ من آراء وتوجهات فى شأن عدد من المسائل الحياتية، والفكرية، والعلمية، كانت جميعا موضع التقاء بين اهتمامات مُحَاوِرِىَّ واهتماماتى. وأما الرسائل فهى ترصد عددا من الخطوات قمت بها فى بعض مراحل الحياة وأنا أتقدم خطوة خطوة، دخولا فى عالم المعرفة العلمية، تلقّيا وإبداعا.

وقد رأيت أن أقدّم هاتين الفئتين من الوثائق لأننى مقتنع بأن من حق المجتمع على أبنائه أن يطلع (كلما أمكن ذلك) على المنظور المتكامل لتوجهات الفكر والفعل التى انتظمت جهود هؤلاء الأبناء، فهذا المنظور هو وحده الكفيل بإبراز الدلالات العميقة لهذه الجهود بجزئياتها وكلياتها، وهو وحده الكفيل بإبراز مدى الاتساق والتساند بين هذه الجهود.

هذا وقد أفردتُ الجزء الأول من المجلد للحوارات، وكرست الجزء الثانى للرسائل، وقدّمتُ لكل جزء بمقدمة خاصة تيسّر على القارئ استيعاب ما اشتمل عليه هذا الجزء أو ذاك من مضامين.

أما بعد . .

فربما كان هذا النوع من الكتب شحيحًا فى المكتبة العربية الحديثة، ولكننى على يقين من أن حجم هذا الشح يتناسب عكسيا مع تعدد الدلالات الاجتماعية الهامة التى تقترن بها. وهو ما يحفزنى إلى الأمل فى أن يجد الكتاب الراهن الطريق ممهَّدًا إلى نطاق معقول من القراء ذوى الأفئدة التى تجمع بين علوّ الهمّة ونفاذ البصيرة.

مصطفى سويف

القاهرة، فى يونيه سنة ٢٠٠٢م